مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 19 العدد01 2023/01/05

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

أنثربولوجيا الصحراء وأبعادها الطوباوية في المخيال السردي عند إبراهيم الكوني

The anthropology of the desert and its utopian dimensions in the narrative imagination of Ibrahim al-Koni

بودنة بلقاسم *

المركز الجامعي نور البشير، البيض (الجزائر)

blkacem@hotmail.fr

تاريخ الاستلام: 2022/10/01 تاريخ القبول: 2022/02/18

ملخص:

استطاع إبراهيم الكوني بمداد قلمه أن يرسم الكثير من الأماني على صفحات رواياته العجيبة، كما تنسمها من لفح رمض الصحراء، وظل خطابه الفني فيها يؤسس لتمظهرات أنتروبولوجية طوباوية حالمة بمثالية الواقع المأمول، فأتخذ الكوني مسالك ومسارب عديدة لنقل تلك الصور الحالمة، وظلت تنويعاته السردية تعول على كرونوتوب أنتربولوجي عميق يسبح في أحقاف الصحراء وواحاتها، فقدم أعمالا تصيخ السمع بتميزها وفرادتها السردية؛ تحاكي نمطا تخييليا في المدى المطلق، يمارسه بعفة وعنف، بلين وشدة، حتى غدى عنده رمزا سرديا، فارتقى به فنيا وإبداعيا وثقافيا وحضاريا.

الكلمات الدالة: أنتربولوجيا، الصحراء، طوباوية، السرد، إبراهيم الكوني.

Abstract:

Ibrahim al-Koni was able to draw many wishes on the pages of his wondrous novels as they breathe from the scorching sand of the desert, and his artistic discourse in them continued to establish the manifestations of a utopian, dreamy anthropology with the ideal of the hoped-for reality. He swims in the valleys and oases of the desert. He presented works that deafen people with their uniqueness and narrative uniqueness. It simulates an imaginary pattern in the absolute range, which is practiced with chastity and violence, softness and severity, until it became for him a narrative symbol, so he rose through it artistically, creatively, culturally and civilly.

Keywords: anthropology, desert, utopia, narration, Ibrahim al-Koni.

* **المؤلف المرسل**: بودنة بلقاسم، **الايميل**: blkacem@hotmail.fr

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

1– مقدمة:

أقام إبراهيم الكوني كيانه الفني في الصحراء، استلهم منها وجوده الطبيعي، وتقاسيم لوحاته الفنية الزاهية بعطاءاتها الخيالية، وهذا لا يلغي خصوصيته الفنية في الكتابة الروائية، وتمكنه من أساسياتها السردية، وأساليبها اللغوية وأحداثها وشخوصها، فقد رص أساليبه في قالب سردي محكم، ومتزن، يستوفي الشروط الضرورية للكتابة الروائية؛ إذ هو ذاك الشخص الحالم المتأمل إلى وجوده، الساعي لتحقيق رجائه المتمثل في كسب الرهان المفقود ببعث المجتمع التارقي إلى الوجود بكل طموحاته وانتماءاته، فإلى أي مدى تمكن من تحقيق الأبعاد التخييلية الطوباوية في رواياته؟ وكيف تمثل هذه الطوباوية في نقل تصوراته الأنتربولوجية عن الصحراء؟

2 – الفضاء السردي للصحراء ودلالاته:

ارتبط المكان بالكثير من التصورات الفنية والثقافية والفلسفية في الكتابة الروائية؛ إذ أنه "المكان حاضنه الوجود الإنساني وشرطه الرئيسي والأكثر قابلية للتحول واختزال المفاهيم والاكتظاظ بعدد كبير من الحدود والتصورات والمحاميل وشحنات الجمال"(صلاح، 1997، ص70)، فشكل تماسا فنيا كبيرا في أعمال إبراهيم الكوني، فكان الكوني أعمق تبصراً بالمكان في كتاباته الروائية، فنشأت بينه وبين الصحراء علاقة حميمية؛ وتركت في نفسه أثرا كبيرا؛ فكانت المداد الذي يحبر به صفحات رواياته، حيث "تستأثر الصحراء باهتمام منقطع النظير في عالم الكوني الروائي. فغضبها وصفاؤها وعتمتها وأمانها وغدرها يترك أثره الكبير في الأنية السردية بما في ذلك الشخصيات والأحداث واللغة"(عبد الله،2005، ص570)، فوفرت الصحراء له الفهم المتبصّر لما كان في ماض مجتمعه وما يمكن للمستقبل أن يكون عليه مجتمعه المترامي الأطراف.

من يطالع روايات الكوني يجدها مغمرة بتيمة الصحراء، فهي ديدنه وأسوته التي تفيض بالنبض الفني السردي، وجسدها برؤى رمزية توحي بمعاني الإنتماء والهوية، فهي مصدر النماء والخصوبة والبقاء والاستمرارية، لأنها تحمل في كنهها إرادة الإنسان الطموح، الذي يسعى إلى إثبات وجوده رغم قسوة الحياة في الصحراء، فرسم معالم المجتمع التارقي أحاسيسه وانفعالاته، وبرر أسباب بقاء المجتمع التارقي في الصحراء، تأكيدا لمعاني الأنتماء الانتربولوجي للمكان، وكذلك دفاعا عن المكتسبات الهادفة والمثالية التي

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

يسعى إليها التوارق. فحاول استعادة ملامح المكان (الصحراء) الأصلية وأجوائها وموروثاتها العريق، بعد أن غيبتها الحضارة، وتعمقت فيها الهوة الزمانية بين الماضي والحاضر والمستقبل، وأصبحت هامشا منسيا.

ظلت روح الكوني تتوق في رسم معالم حكايات من واقع الصحراء السحري، وملامحه الأسطورية، وظل المدرك الحسي للهوية الإثنية يمثل الجوهر الأساس للمحددات الثقافية، حيث يرى أن الصحراء مهد الرجل التارقي، فهو يستمد روح الصبر والصمود والحلم، حيث منازل الأجداد ومراتع دوابهم، حيث الصراع من أجل البقاء، إنها الإحساس بالأصل المشترك الذي يمتد إلى أبعد من القرابة بالتضامن السياسي والعادات المشتركة واللغة والدين والقيم والأخلاق وآداب السلوك في المجتمعات الأخرى، فالكوني يؤنسن المكان الصحراوي، وجعله يبدو جليا وأكثر حيوية، يقول: "أن توجد الصحراء يعني بديهيا حضور كل الأوطان، بل وحضور الدنيا! هذا يعني أن على الناس أن يعلموا مرة واحدة وإلى الأبد أنني لا أكتب عن الصحراء كصحراء، ولكنني أكتب عن الصحراء كاستعارة للوجود الإنساني بأسره"(الكوني، 2012، ص302)، فسياقات المكان لا تحدها حدود، فهي ممتدة إلى ما لانهاية، لأنها تبني وتؤسس لشرط إنساني إثني عقدي.

إن الدستور الذي يشرعن سلوك الإنسان من داخل الصحراء بحسب الكوني أنه يمثل مبتغى الإنسان الأخلاقي في تمثيل قيمه العليا "يقال إن التنافس بين الواحتين كثيرا ما أدّى إلى نزاعات خطيرة...ولكن لم يحدث ولا مرة أن استغلت (آدري الشمال) حظوتها فاستخدمت ضد جارتها سلاح المياه لتميتها ظمأ. والفضل في التحلي بهذه البطولة لا يرجع إلى روح التسامح بقدر ما يرجع إلى روح الأوائل الذين يرون أن منع الماء عن خصم (حتى لو كان أعدى عدو) ليس جرما في حق الناموس الأرضي، ولكنه إنكار للناموس السماوي" (الكوني، 2008، ص62) ، الصحراء هي تمثيل البعد الإنساني بالأخلاق الفاضلة، لأن مظهر الوجود المكاني جعل "الصحراء معلم حكيم لم نستمع إليه طول حياتنا، لأننا كنا مشغولين بتنفيذ أوامر النفس التي لا تأمر إلا بالسوء"(الكوني،1991، ص137) ، فالصحراء تشكل عمقا في الذات الإنسانية .

3- أسطرة الصحراء وبعدها الانتربولوجي :

امتلك الكوني الجرأة بإعادة صياغة أسطورة الصحراء وفق منطق التجربة والرؤيا، فهو يرى أن المجتمع الصحراوي لا يرغب في التفاعل مع التعددية الثقافية والاجتماعية الراهنة، بل يتفاعل من داخله

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

ويتطور من تلقاء ذاته، فالكيان الصحراوي للرجل الأزرق متحرر في المكان، ومسجون فيه في نفس الوقت، مملكة الصحراء لدى إبراهيم الكوني تجسد مبدأها الطوباوي، بقوانينه التاريخية، الاجتماعية، الدينية، والانتروبولوجية، يقول:"الصحراء كنز، مكافأة لمن أراد النجاة من استعباد العبد وأذى العباد" (الكوني، 1990، ص28) ، أي أنها فضاء تجلي الجوهر الإنساني وقد تحرر من كل ضرورات الواقع الاجتماعي خارجها. وللصحراء منطقها الأخلاقي الصارم، وقدرها "قدر العزلة، قدر الصحراء" الكوني، 1990، ص 94)، الصحراء هي الحامل المادي للأخلاق، وهي التجسيد الروحي لها، يقول أيضا: "والصحراء وحدها تغسل الروح. تتطهر. تخلو. تتفرغ. تتفضى. فيسهل أن تنطلق لتتحد بالخلاء الأبدي. بالأفق. بالفضاء المؤدي إلى مكان خارج الأفق وخارج الفضاء. بالدنيا الأخرى. بالآخرة" (الكوني، 1990، ص127).

اعتبر الكوني الصحراء فضاء مفتوحا، وروحا عارية ذات قوانين خاصة، فهي التعبير عن حقائق الوجود ، يقول: « وجودنا لغز لا يكتمل وجوده إلا بوجود ثالوث: الرواية، الخلاء، الأسطورة، الرواية روح اللغز والخلاء جسده، والأسطورة لغته، الرواية فيه روح والأسطورة له روح هذه الروح. في هذا الدور يكمن سر اللهفة إلى الأسطورة. هنا يكمن الظمأ إلى الأسطورة. السرد لا يبقى سردا، والرواية لا تصير رواية، إذا لم تتكلم الأسطورة.» (الكوني، 1998، ص122) فالصحراء عالم النبوءات والكرامات والأساطير والخرافات، «كما كانت الصحراء دائما وطن الرؤى السماوية» (الكوني، 1992، ص3)، فأصالة الصحراء وعنفوانهاهي المدى العميق الذي يشكل الثابت الحقيقي للإنسان، والرابط الأقرب إلى ترسيخ وجوده واستمراريته في الحياة.

الصحراء هي الحرية، والمدى المطلق، والحيرة والأرق والعذاب، وامتداد وقسوة وانفتاح على جوهر الكون والوجود، فالذين ولدوا من رحم الصحراء، يتغذون عذاباتها، يتغذون حيرة الروح، وقلق الوجود، هي الجسد المثخن بجراح السنين ألماً ودماً ودمعا..! ، وبل هي استمرار في الآلام الحاضرة بألوان وأحداث جسام، تسري في الكون، وهذا ما جعل من منطق المخيال الصحراوي لدى إبراهيم الكوني وما ينطوي عليه انسجام وجودي، أساس في تشكل فضائاته السردية المختلفة، وحركية السرد لديه هي حركة الصحراء نفسها "حتى إذا أشرفت على السهول العليا على حين غفلة فوجئت بأجمل المخلوقات ترتع بسلام. حتى إذا شعرت بحركة الإنس تأهبت للفرار. وعندما تتحرك في فرارها الجماعي، يتحرك السهل. تتحرك

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الصحراء، كأن الصحراء نفسها هي التي تتحرك وتفر هربا من بطش الإنس." (الكوني، 1990، ص 102) ، فالصحراء تتجمل وتتزيا بأصناف المودة والعشق الصوفي من طرف الكوني إلى أبعد الحدود.

إن النموذج الشعائري لدى الكوني في تفسير وجوده وكينونته لم يكن وليد الصدفة، بل تضحياته يمثل تصورا إثنيا ضاربا في عمق تاريخ أسلافه، فاستطاع أن يزاوج بين الأسطورية والشكل الروائي، فخلق بذلك شكلاً روائياً عربياً له خصوصيته وتفرده وتميزه، فنصوص الكوني السردية تستنطق كل ما هو خرافي أسطوري في فضاء الصحراء، يقول عنه سعيد الغانمي "في البداية كانت لغة الآباء والأجداد مكتوبة بلغة سماوية سرّية، ذلك أنها رموز مستعارة من لغة الآلهة. ومن هنا فقد احتكرها الثالوث المقدس الكهنة، والسحرة، والعرافون. وكتابة الصحراء بهذا المعنى المادي قد يكون لها مفعول أكبر وأخطر، فقد اقترنت لحظات الموت والميلاد بالنقوش والكتابات القديمة. الكتابة رموز ماديّة غامضة تنطوي على قوة خفيّة مدمرة تقتل وتميت، ولكنها قد تضمر سرا عظيما، وقد تبطن قوة تحي وتكون برفقة الميلاد"(سعيد، 2000، ص157، 158) ؛ فرواياته الأخرافية يتجلى فيها الوجد الصوفي، والكشف الغرائزي.

شكلت الصحراء بعدا انتربولوجيا في أعمال الكوني، وافترض بذلك قانونا خاصا لها، حتى تتساوق الصحراء بمجالها الأسطوري في المخيلة الذهنية للمجتمع التارقي، وجعل شروطا تحرك هذا التدافع الإثني، مما يجعل مشاعر التوارق تهيم بالالتفاف حول رمز يقرب ما بينهم، مثل التأثير الطقسي في رابطة الدم، يقول: "هذا هو العهد، حضن القربان وميثاق الدم واللعنة سوف تلاحق من تسول له نفسه أن يخون رباط الدم.. فلا يوجد في الدنيا أقوى من رباط الدم وليس هناك جريمة أبشع من خيانة هذا الرباط"(الكوني، 1990، ص111، 112)، جعل من رباط الدم مثال على تجسيد الأخوة في الصحراء، وهذه الأخوة تشد أوصالها رابطة المكان (الصحراء)، فلا يجوز أن يحتقن الدم ولا تزهق الأرواح ولا يطالها الدنس، لأنها محمية برابطة الدم الصحراوي.

يرى جيمس فريزر أن المجتمعات الأسطورية القديمة وفق تصور خرافي اعتقدت بوجود وسائل تمكّنها من اتقاء شرور الطبيعة أو التغّلب عليها بوساطة فن السحر، لذا أستخدمت الرقى والتعاويذ السحرية ؛ طلباً للغيث والتكاثر، ونمو الزروع(ينظر، جمس، 1979، ص15) ، والممارسة لها تبدو طبيعة لذلك الكجتمع للألفة، فتتشكل لديهم قدسية خاصة لها، ولعله أيضا هناك أوجه الشبة بين الطقوس السحرية والطقوس الدينية ، أنّهما معنيان بالظواهر غير العلمية؛ أي بالمجال الذي يتعدى دور التّصور

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الواقعي إلى المجال المجهول غير الخاضع للحس أوالقياس، كما أن معاني الطقوس السحرية أو الدينية تكتسب الجِدة، بسبب ارتباطها بالنشاطات الروحية(ينظر، قيس، 1971، ص177، 180) ، هذا جعل الكوني يتفاعل مع مجتمعه ومع تجاربه ومع ثقافته، ويتأّثر بالظروف المحيطة به، ويمتح من فكره، ومن تصوراته للحياة، وظل يخصب إنتاجه السردي بخلاصة ذلك التأثّر، وتوظيف الأسطورة في رواياته جميعها.

4- الحدث السردي والزمن الطوباوي :

4-1- الطوباوية ودلالاتها:

الطوباوية مصطلح إستخدام للدلالة على التعالي الذهني للخيال الإنساني، وهي تجاوز الواقع الموجود هي تصور مثالي لكل شيء مفقود قائم في الخيال، أول من استخدم مصطلح الطوباوية بالمعنى نفسه توماس مور (في كتابه يوطوبيا) ليصف مدينة مثالية وخيالية ، أول ما نستنتج أنه ليس بوسع هذا البنيان اليوطوبي أن يقوم إلا على توصيف التصورات لجزيرة محمية ومنعزلة في الوقت نفسه، فهو يشمل كل مجتمع خيالي غير قابل للتحقيق، وتنصّ على الرؤية التصورية الخيالية للمجتمع المثالي الكامل، وتوصيف لكل من يحلق بعيدا في الخيال ليرسم لنفسه وللآخرين حقائق وهمية لا أساس لها من الصحة والواقع، أي أنّها تشتمل فعلياً كشف الواقع والمبالغة في الكشف، وهي ضرب من اليوتوبيا التي تصور وترسم افكارا غير قابلة للتطبيق، كما انها الانشاء ورصف الكلمات لاشياء لا اساس لها من الصحة(مراد، 2016،ص13) فالمصطلح له ترجمات مختلفة، دلالاته العميقة نحتت من عمق التصورات الخيالية التي ترسم المثالية المطلقة التي ينبغي أن يكون عليها المجتمع في الثقافة وأنماط التفكير، وما يلزم أن يتجسد في ووجدانات بنيه.

4-2- تمظهرات السرد الطوباوية لدى إبراهيم الكوني:

إن صفة الإله الصحراوي رانت على مخيلة الكوني، وجعلته يستلهم البعد الأسطوري لها، في الكثير من أعماله، مما جعلها تتسم بالطوطمية المغالية في الوجود، فهو يرى ان صفاء النسل التارقي متواصل بعنفوان هذه الروابط الأخلاقية التي تبجل إله الصحراء، وتجعله نبراسا ببعده الأنتربولوجي لتسير شؤون حياته، وظلت صور" الإله الصحراوي يقترن رمزيا بعدد من الحيوانات، يأتي في مقدمته ا: الثور الوحشي والودان، وبسلالة الزواحف تتصدرها الأفعى والضب واليربوع والورل والقنفذ والأرنب"(سعيد، 2016، ص47) ، فتجربة الكوني الحدسية جعلته يألف الخارق من حكايات الأجداد حول روابط الدم وروموزها الحيوانية في الصحراء الكبرى، مثل قصة الثور الوحشي والناقة والوادان وغيرها من الحكايات الخرافية، وما

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

حيكت حولها من تمتمات غريبة ضاربة في اللامنتمي واللاموجود وفي الميتافيزيقا، وصارت "حكاية مقدسة ذات مضمون يشف عن معانٍ ذات صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان"(السواح، 2001، ص14).

تمظهر الطوطم بأشكال سردية مختلفة لدى إبراهيم الكوني، والطوطم هو رمز وإشارة للمخلص في وقت الشدة، كما يرى ذلك أورينت ستار؛ إذ يبعث إلى صاحبه بأجمل الأحلام. من أجل ذلك حرم هتك الحيوان أو لمسه(اورنيت،1994، ص53) ، والمرحلة الطوطمية رسمها الكوني مع حيوان الوادان، وهو نوع من الغزلان الصحراوية المفقودة والنادرة، "يبدو لنا أن المشابهة بين الثور الوحشي والودان تاريخيا ووظيفيا وشكليا، تشجعنا على اعتبار الثور حيوان المولفون أو الودان آلذي انقرض في صحراء العرب منذ وقت مبكر، ولم يترك سوى هذه التسمية اليتيمة" (سعيد، 201+6، ص103) ، فأصبح يطلق على الأودية الصحراوية وشعابها وجبالها أسماء الأشباح المرسومة على صخورها: فهذا وادي الغزلان، وتلك شعبة الصيادين، وذلك جبل الودّان، وذلك سهل الرعاة(الكوني، 1990، ص13)، ومن الأساطير التي استبطنت النموذج الشعائري السردي لدى الكوني حكايات الودان الخرافي، إذ تشبع بتجلياتها العقدية التي تسيطر على ذهنية الصحراويين (التوارق)، وتمثلها بأسلوب عجيب، وتمثلها خرافاته بمشهدية فيها نعوت أسطورية وصفات التأليه، وجعل صفات العبادة الخضوع ، والممارسات العرفانية لأنها تمثل البنية العميقة التي تتغلغل في أحشاء المجتمع الصحراوي والذّائبة في شرايينه.

تمثل الصحراء الكفايات السردية في بعدها الطوباوي لدى الكوني، وقصة الوادان الخرافية تلمسها من المخيال الشعبي لمجتمع التوارق، ومن ثقافته الجوهرية التي تنشد الاستمرار في التواصل البيولوجي، لتحافظ على السلالة التارقية نقية صافية من الدنس، فهي متشبعة برؤاها الأنتربولوجية التي تتحكم في دواليب حياة هذ المجتمع، وترسم معالم طريقه، هذه القصة تحمل ملمحا حديا في المخيال التارقي؛ إذ ترمز لبعد إيماني مطلق خالي من الآثام، فحكاية الجد الأكبر(الودان) ذكرت في مواطن عدة من روايات الكوني، بمرويات خرافية مختلفة.

ذكر "الوادان" في رواية نزيف الحجر، فوردت مع حكاية الإبن المولع بالصيد، فكان والده يكافئه على نجاحه في الصيد واستيعاب منطقه معا، بهدايا تنطوي على أبجدية الإبداع الصحراوي المنقوش على الجلد والقماش ونسجيات الصوف المزخرفة. لكن الأب لم يستجب أبدا لإلحاح الإبن عليه أن يعلمه صيد الودّان، وإن استمر الإبن في إلحاحه، بالرغم من أن أمه قالت له "لماذا تلح على أبيك أن يذهب بك لقتل

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الودّان؟ ألا ترى أن ذلك يؤلمه"(الكوني، 1990، ص52) ، ولا يكتشف الإبن السر، كما في الحكايات الأسطورية، إلا بعد ثلاث محاولات مخفقة، تبوح له الأم بعدها "أبوك لا يريدك أن تسفك دماء الودّان لأنه نذر نذرا من زمان قبل أن تولد، كان يصطاد في سفوح جبال آينسيس فزلقت رجله، ووجد نفسه معلقا بين السماء والأرض، يمسك بصخرة ورجلاه تتدليان في الهاوية. فقد الأمل في النجاة فانتشله الحيوان الذي كان يقاتله وينوي قتله وأنقذه من الهلاك"(الكوني، 1990، ص 53) ، وهذا التماهي العقائدي جسده بطريقة سردية خاطفة، تحمل الكثير من الأوعية الأفهومية التي تختزن سر الوجود والبقاء في مملكة الصحراء.

ونقل خرافة (الوادان) مرة أخرى في حكاية "الشبح" من رواية " بر الخيتعور"(الكوني، 2007، ص115) ، عندما يقرر إيمري النزول إلى المراعي بحثا عن إبله الشاردة، فتطول غيبته ويعيش مغامرة عجيبة، فاستيقظ في أحد الأيام باكرا، وتناول حربته، وخرج للصيد، اختار حيوان الودان، لأّنه "طريدة تحمل في جسمها لحما، هو دواء ولذة وتميمة. لذة المذاق، وترياق الأوجاع، وتميمة لتحريم أّقره الأسلاف آلذين عرفوا في الودان سلالة الجد"(الكوني، 2007، ص122)، وغاب عنه أن الودان محرم في أعراف الصحراء، وهو " الحيوان آلذي أجمعت القبائل أّنه كان جد كلّ إنسان في الصحراء"(الكوني، 2007، ص122) ، فاقترب من فريسته، وسدد حين حبس أنفاسه؛ "رمى، أو قبل أن يرمي، أو في الومضة الفاصلة بين وجد الشرر وحركة الساعد، التف حول صدره الأفعوان، فسحق الساعدين وضمهما إلى صدره بقسوة جنونية، أغمي عليه وفقد وعيه، وعندما استيقظ وجد نفسه ملقى على فراش وضيع: "بين يدي الرعاة، حكيم المراعي ينحني فوق رأسه"(الكوني، 2007، ص125)، وبعد عودته، حين حدث الحكيم بمغامرته، قال له: "هل نسيت أن الأسلاف يرون الودان قديما جدا""(الكوني، 2007، ص127) ثم أكد له بأن " أبوة الودان لأهل الصحراء ليست أسطورة من الأساطير""(الكوني، 2007، ص128) بل هي رمز البقاء، والسلام والاستمرار، فصيد الوادان إثم كبير، لأنه المقدس والمخلص في المحن.

إن حضور الأسطورة في الذاكرة الثقافية والحضارية للإنسان، وقابلية جوهرها للانتشار لأنها تستمر "بفعل تخييلها ، وهذا التخييل يمكن أن يوصّل بالرموز اللفظية لأية لغة " (ريد، 1997، ص116) ، فحوّر في بعض شخصيات هذا التراث بما يناسب تجربته و رؤيته، و استفاد من الدلالات الثرة التي يزخر بها في خلق عوالم جديدة، واستقصاء آفاق حديثة، الصحراء في نظر الكوني تعد ترياقاً يشفي المواجع التي

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

تفيض بالشجن والإحن، على الرغم من أنها مصحّرة لياليهم الطويلة العسيرة، فتشيّع مثواهم بغبار آثامهم العصية، وتعيد لهم البقاء بعد هدوئها، فوقف إبراهيم الكوني على فضاءات باحثا عن سر الوجود الإنساني فيها، مستغرقا في حالات كشف لا تكاد تنتهي إلا لتبدأ كزمن الصحراء الدوري في لانهاية، وهو القائل: "أن توجد الصحراء يعني بديهيا حضور كل الأوطان، بل وحضور الدنيا! هذا يعني أن على الناس أن يعلموا مرة واحدة وإلى الأبد أنني لا أكتب عن الصحراء كصحراء، ولكنني أكتب عن الصحراء كاستعارة للوجود الإنساني بأسره" "(الكوني، 2002، ص302)، فحب الصحراء، والعيش فيها وتحمل متاعبها، يعد من شروط احتفاظ الإنسان ببراءته المهددة.

ظلت الصحراء في تاريخ طويل ممتد، تشكل رمزا طوباويا لدى الكوني، فالخيال لديه رسم صورا ذهنية ليس لها وجود في عالم الإنسان الحسي، بل كانت تعيش في التفكير الجمعي، وفي التراث الأزلي الضارب في المجهول وما وراء الطبيعة، فحاول الكوني إعطائها أبعادا ملموسة بتخريجاته السردية، وهذا هو التميز في الكتابة الروائية لدى الكوني؛ إذ "يشير الاستخدام اللغوي المعاصر لكلمة الخيال إلى القدرة على تكوين صورة ذهنية للأشياء غابت عن متناول الحس، و لا تنحصر فاعلية هذه القدرة في مجرّد الاستعادة الكلية لمدركات حسية ترتبط بزمان و مكان بعينه، بل تمتد فاعليتها إلى ما هو أبعد و أرحب من ذلك فتعيد تشكيل المدركات، و تبني منها عالما متميزا في جدته و تركيبه"(جابر، 1992، ص97)، بمعنى التخييل هو نقل لمدركات الحسية إلى مشهدية تصويرية واقعية .

أعطى الكوني معنى مختلفا للرواية الصحراوية، وزادها بُعدا تاريخيا جديدا، وهذا ما يؤكد تبنيه البعد الانتربولوجي كركيزة تخييلية سردية، تشتمل على مواضيع غنية مملوءة بالتشويق والإثارة لجذب القارئ و المتلقي، ونلاحظ أيضا عنصر الشُخوص ليس إلا تجسيدا للعنصر البشري في عالم الرواية الخيالي لدى الكوني، فقصة (أمناي) في رواية المجوس، تتشكل شخوصها الخرافية بصورها الهلامية العائمة في التخييلية، وصورة الإله أمناي وغضبه، وعذرائه التي حضي بها كقربان وهدية لهدوئه"(الكوني، 1990، ص131)، وتشترك شخصيات الكوني الروائية في طبائعها وملامحها، وتفكيرها ولغتها، فهي مسكونة بالصحراء في المصير وفي الحدث، كلها محكومة بنواميس الصحراء استعارة الوجود، التي تتردد في أجوائها وصايا الأسلاف مخبرة الأجيال أن قدرها هو الرحيل. فتمائم أرواح الأجداد تضيء هويتهم وعالمهم ، فنلاحظ

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الكوني يدبج شخوص روايته ويستسيغ لها مكانها السردي، ويؤسس لها أدوارها بوعي صارم ودقيق، على الرغم من أنه لا تنفلت منه اللحظة التخييلية، باعتبارها المحرك للحَّكي السردي والمنسق لأحداثه.

إن التنويعات السردية والخطابات الأنتربولوجية البديلة، وعنف الحلم وخيبة الواقع، جعل من الصور الطوباوية تغدو فكرة بعيدة عن الواقع، لتشير إلى مكان ومستقبل غير قابلين للتّجسّد الفعلي على أرض الواقع، والسّبب في ذلك، أنّها في الأصل مجرّد تصورات وفرضيّات، ماثلة في الذهن، تعبّر عن فكرة ونظرة فلسفيّة(شريف،2018، ص11.) ، حيث يتنازل فيه الواقعي للمثال، في منحى فلسفي يعبّر عن ذهنية فلسفية تأملية، فالمنطوق السّردي يكشف لنا بوضوح مدى القلق الذي استبد بالكوني إلى حدّ الألم، والطوباوية الحالمة، الموغلة في العمق امام الوهم وفي جدلية معقدة تنطوي على هواجس تصورات مشحونة بتخييل متفرد في الغائية.

5- خاتمة:

تنوع الاشتغال لدى إبراهيم الكوني على اللغة السردية تخييليا في مستويات متعددة، توحي بالإرادة الفنية الحالمة، في طوباويتها، والسعي بها في القضايا الفكرية والسياسية والاجتماعية والإنسانية، عبر توليفة إبداعية يصعب أن نفهمها إلا في ضوء فهم الرمز الانتربولوجي، وفي علاقته بالتشفير السياسي، واحتفاظ الشخصية السردية بعمقها الثقافي والديني والنفسي والاجتماعي، والأيديولوجي، ظل الكوني مسافرا إلى أبعد الحدود في التخييل الطوباوي الذي يأبى التحقق واقعيا، لكن نجح تحقيقه تمثيلا روائيا، بمشاهد سردية فنية، وتصورات إبداعية تبرر تمكنَه من أساليب السرد والقص.

المراجع:

1- إبراهيم الكوني، 2012،.ثوب لم يُدَنَّسْ بِسَمِّ الخياط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1،

2- إبراهيم الكوني، 1991، الخسوف، رباعية روائية، الجزء الثالث: أخبار الطوفان الثاني، تاسيلي للنشر والإعلام/ دار التنوير للطباعة والنشر، ليبيا، ط2

3- إبراهيم الكوني، 1998، صحرائي الكبرى، المؤسسة العربية للنشر بيروت.

4- إبراهيم الكوني، 1992: الخروج الأول إلى وطن الرؤى السماوية، ط1، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت:

5- إبراهيم الكوني، 2008، الورم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1

6- إبراهيم الكوني، 1990.، نزيف الحجر ، دار الريس للنشر، لندن، المملكة المتحدة.

7- إبراهيم الكوني، 1990، المجوس، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا، ط1

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

8- إبراهيم الكوني، 2007.، بر الخيعتور، دار الكتب الوطنية – بنغازي، ليبيا، ط3

9- أورينت ستار، 1994، ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، ترجمة: حسن نعمة، دار الفكر اللبناني، بيروت، د.ط.

10- جابر عصفور، 1992، الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي للنشر، بيروت لبنان، ط3

11- ريد هربرت ، 1997، طبيعة الشعر ، ترجمة : عيسى العاكوب ، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية ، دمشق.

12- سعيد الغانمي، 2000، ملحمة الحدود القصوى : المخيال الصحراوي في أدب إبراهيم الكوني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 1.

13- السواح فراس، 2001 ، الأسطورة و المعنى ، دار علاء الدين ، دمشق ، سوريا ، ط 2 .

14- شريف بن دوبة . 2018، يوتوبيا، المفهوم ودلالاته في الحضارات الإنسانية المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية،، ط1.

15- صلاح صالح، 1997، قضايا المكان الروائي في الرواية المعاصرة، دار شرقيات، ط1.

16- عبد الله ابراهيم، 2005 ، موسوعة السرد العربي، المؤسسة العربية للد راسات والنشر، لبنان، ط1.

17- فريزر جيمس، 1979، أدونيس أو تموز، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، ط 2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

18- قيس النّوري، 1971، الأساطير وعلم الأجناس، جامعة بغداد، العراق، ط 1.

19- مراد دياني، 2016، حرية – مساواة – كرامة إنسانية: طوباوية العدالة من منظور النموذج الليبرالي الاسكندنافي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الضعاين، قطر، ط1.